القول الفلسفي: مرحلة التأسيس

(من خلال رسالة الكندي في العقل)

د/ عيساني امحمد*

***

تمهيـد

لقد كانت الحاجة إلى إنتاج خطاب فلسفي في العصر الوسيط، نتيجة الوعي الحاد بـ {تناهي النص} و{لا تناهي الحالات والنوازل} الأمر الـذي دفع بالاجتهاد (المجتهدين) لبذل الجهد في استنباط الأحكام الشرعية من عبارات {المتناهي}، و" ذلك بالبحث في الحالة المستجدة عن معنى أو وصف ظاهر منضبط يصلح مناطا لحكم شرعي يحكم به بناء على ذلك المعنى"[1].

وقد كان في التمازج الثقافي بين الثقافة اليونانية القديمة والثقافة العربية الإسلامية الوسيطة الأثر الكبير على العديد من الفلاسفة المسلمين الذين عرفوا عن طريق الترجمة (من اليونانية إلى العربية) كل مؤلفات أفلاطون وأرسطو الأساسية، وكذلك الفيلسوف الاسكندراني أفلوطين ممثل الأفلاطونية الحديثة، حيث تكون نتيجة لذلك (نقل التراث الفلسفي اليوناني إلى العربية)، وضع فكري جديد أو ما يسميه ميشال فوكو بالإبستيم. وكذلك من حيث " أن الإسلام كون الترسانة الواسعة لمجموعة ضخمة من المشكلات الفكرية والدينية والاجتماعية التي عملت، بفعل عامل التأويل واستخدامه حتى الحد

---

* - قسم الفلسفة / جامعة وهران.

[1]- سالم يفوت، حفريات المعرفة العربية الإسلامية، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى 1990، ص47.

الأقصى من قبل الأطراف الفكرية المتنازعة، على تقديم وقود لنزاع تلك الأطراف."[1].

وأول من عكس هذا الوضع الجديد، هو **أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي** كأول فيلسوف عربي عاش في نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث الهجري (القرن التاسع الميلادي)، في طروحاته الفكرية العقلانية، حيث كان يمثل همزة وصل بين التراث اليوناني والفلسفة الإسلامي. من خلال رسائله الفلسفية التي قاربت 281 رسالة، حسب إحصاء القفطي في أخبار الحكماء، أجاب فيها بطريقة فلسفية عن جل القضايا الفكرية المطروحة آنذاك، وإذ نأخذ في هذه الورقة، كمثال، **رسالته في العقل**. فإننا بذلك نريد أن نبين وجهة نظر الكندي الفلسفية في قضية العقل، التي يراها بعض الباحثين أنها مجرد عرض لنظرية أرسطو في العقل. غير أننا إذا تأملنا نجدها تعبّر في الحقيقة عن موقف الكندي الشخصي، وهو موقف متكامل ينبني على الفصل بين المحسوس والمعقول ويحدد فيها درجات العقل الإنسانيّ من الإمكان إلى التحقق ومن التحصيل المعرفي إلى الممارسة، وهذا من حيث العلاقة بالشروط الميتافيزيقية للمعرفة.

1)- العقل عند الكندي

تبدأ الرسالة ببيان أقسام العقل حسب رأي أرسطوأوكما فهمها الكندي، على أن العقل عنده (أرسطو) أربعة أقسام:

الأول: منها العقل الذي بالفعل أبدا.

والثاني: العقل الذي هوفي نفس الإنسان بالقوة.

---

[1]- طيب تيزيني، مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط، دار دمشق للطباعة والنشر مصر، (د.ط) 1971، ص226.

والثالث: العقل كعادة الذي هوفي النفس بالفعل. (العقل المستفاد)، أوالذي خرج من القوة إلى الفعل.

والرابع: عقل هوفِعْل به تُظهر النفس ما هوفيها بالفعل. (العقل الظاهر)، أو العملي.

ومن هذا التقسيم الذي يقدمه الكندي حول العقل على رأي أرسطو، يستطرد في الكلام في أن أرسطويمثل العقل بالحس، ويتحدث عن نوعي الصور الهيولانية (المادية)، وغير ذات الهيولي (المجردة أوالمعقولة)، وهي الصفة الأولى للعقل عند الاسكندر الأفروديسي في مقالته في العقل على رأي أرسطوطاليس[1] ، فالعقل الهيولاني يعني به عقلا يمكن أن يصير كاملا مثل الهيولي، والمقصود عند الاسكندر بالهيولاني هوالعقل الذي لم يفعل بعد، ويمكن أن يفعل أوأن يصير متصورا للأشياء كلها، هوهيولاني [2].

والصورة المحسوسة في رأي **الكندي** إذا ما اكتسبتها النفس أصبحت هي والنفس شيئا واحدا، عكس حالتها الأولى إذا لم تكن في النفس، ويذكر الكندي كذلك " أن القوة الحاسة ليست شيئا غير النفس، ثم يقرر أن العقل صورة لا هيولي لها، ويمضي في بيان أن الصورة تكون في النفس بالقوة ثم بالفعل، ويخرج من ذلك إلى

[1]- أنظر في ذلك، شروح على أرسطو مفقودة في اليونانية ورسائل أخرى، تحقيق وتقديم عبد الرحمن بدوي، دار المشرق، بيروت 1971.

[2]- شروح على أرسطو مفقودة في اليونانية ورسائل أخرى، تحقيق وتقديم عبد الرحمن بدوي، دار المشرق، بيروت 1971 ص ص 31،32.

تعريف (العقل المستفاد) الذي موضوعه الأشياء الثابتة، التي هي بالفعل أبدا "[1].

ننتقل الآن إلى تقسيم العقل عند الأسكندر الأفروديسي ودائما على رأي أرسطو، فهو يقول: العقل عند أرسطوعلى ثلاثة أضرب: " **أحدهما** العقل الهيولاني، وقولي (هيولاني) أعني به عقلا موضوعا ممكنا أن يصير كاملا مثل الهيولي. وقولي (هيولاني) ليس أعني به شيئا ما ممكنا أن يصير شيئا مشارا إليه بوجود صورة ما فيه، ولكن إذ كان وجود الهيولي إنما هو في أنه يمكن أن يصير كلا من طريق الإمكان نفسه، وكذلك أيضا ما بالقوة نفسه فهومن جهة ما هوكذلك [و] هو هيولاني" [2]، وهو في مفهوم الأسكندر قوة واستعداد وهو فاسد بفساد الجسم.

والعقل الثاني: هو عقل يعقل، وله ملكة لكي يعقل، " وقادر أن يأخذ صور المعقولات بقوته في نفسه، وقياسه قياس الذين يكون فيهم ملكة الصناعات القادرين بانفسهم على أن يعملوا أعمالها. فإن الأول ما كان شبيها بهؤلاء، بل بالذين فيهم قوة يعملون بها الصناعة، حتى يصيروا صناعا. وهذا العقل هو العقل الهيولاني بعد أن صارت له ملكة واستعداد أن يعقل وأن يتقبل. وإنما يكون في الذين قد استكملوا وصاروا يعقلون "[3].

وأما العقل الثالث، فهوعكس الإثنين السابقين، فهو العقل الفعال الذي به يصير الهيولاني له ملكة، " بل هو فاعل خارجي، يمنح عقلنا

---

[1]- محمد عبد الهادي أبوريد، رسائل الكندي الفلسفية، (مر. س)، ص 313.

[2]- شروح على أرسطو مفقودة في اليونانية ورسائل أخرى، (مر.س)، ص ص 31،32.

[3]- المرجع نفسه، ص 33.

معقوليته والصورة معقوليتها، ونسبته إلى العقل الذي في النفس كنسبة الضوء للعين، أما وجه الحاجة إليه فهو أنه لحصول المعرفة لابد من عقل يتقبل صورة، ومن صورة تقبل أن تُعرف بهذا العقل، وبدون هذين يبقى العقل بالقوة، أو تبقى الصورة غير معروفة، فلابد أن تصبح الصورة فيه معقولة بالفعل، يعني أن تصير عقلا بالفعل الذي به يتعقل العقل معقولاته "[1]. هذا العقل عند الأسكندر، هو ما يسمى بالعقل الفاعل ، وهو عنده الإله نفسه "[2]، أو كما يؤكد دوهيم Duhem، أن العقل الفعال عند الأسكندر إلهي وأنه لا يقبل الفساد وخالد وأزلي وصورة مفارقة للمادة. ويقول عنه أرسطوكذلك: أنه" شبيه بالضوء: لأنه، بوجه ما، الضوء يحيل الألوان بالقوة إلى ألوان بالفعل."[3]

أما عند الكندي فالأمر **يختلف** كثيرا، فهوصحيح يعتمد التقسيم الرباعي للعقل كما فهمه عند أرسطو، لكنه بمضامين مختلفة جوهريا، وبحمولات إسلامية.

فأول العقول عنده هو العقل العلة، وهو أول لجميع المعقولات والعقول الثواني، والعقول الثواني هي تقسيمات العقل الثاني الذي هو في نفس الانسان، على اعتبار ان العقل العلة عند الكندي هوالله أوالعقل الأول المخلوق [4].

---

[1]- يمكن العود في ذلك إلى كتاب تاريخ الفلسفة في الإسلام لجون دي بور، تر: محمد عبد الهادي أبو ريدة، الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1980، ص 195.

[2] - أنظر أنطوان سيف، الكندي مكانته عند مؤرخي الفلسفة العربية، دار الجيل بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1985. ص 129.

[3]- أرسطو، كتاب النفس، ترجمة: أحمد فؤاد الأهواني، دار إحياء المكتبة العربية، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، 1949. ص 112.

[4]- محمد عبد الهادي أبوريدة، رسائل الكندي الفلسفية، (مصدر. س)، ص328.

أما العقول الثلاثة الأخرى، والتي قلنا عنها موجودة في نفس الإنسان، فإن الكندي يبدأها بالعقل الذي هو بالقوة في نفس الإنسان، وهو ما يعبر عنه الأسكندر بالعقل الهيولاني، وهذا دليل على أن الكندي لم ينقل عن الأسكندر في تقسيمه للعقل، وهو الحامل لفعل التعقل، لأن المعرفة عند الكندي هي تعقل صورة بفعل التعقل.

وإذا ما أردنا أن تُعقل صورة بواسطة العقل، يرى الكندي أنه " لابد أن يكون العقل الأول قادرا على تعقلها وأن يتقبلها بعد ذلك، وهوفي هذه الحالة الأولى يسمى عقلا بالقوة، وفي الحالة الثانية يسمى عقلا بالفعل "[1]، فعملية التعقل هي أن تكون الصورة الحسية مع النفس شيئا واحداً.

ولكي يحل الكندي مشكلة كيف يصير العقل والمعقول بالقوة عقلا أومعقولا بالفعل، " أدخل فكرة العقل الفاعل "[2]، وهو **ثالث العقول** في ترتيبه للعقول، أو العقل كعادة وهو الذي في النفس بالفعل، فهي تستطيع استعماله متى شاءت، مثال ذلك كقوة **الكتابة في نفس الكاتب**، وهوما يسميه كذلك بالعقل المستفاد. إن هذا العقل كما يقول العالم الفرنسي أ. جيلسون Et. Gilson في مقال بعنوان (الأصول اليونانية - العربية للمذهب الأغسطيني المتأثر بابن سينا) الذي ظهر ضمن مجموعة (Archives d'histoire doctrinale et litéraire du moyen age) عام 1929 – 1930 بباريس، " العقل الثالث عند الكندي هوالعقل الذي خرج في النفس من القوة إلى الفعل ". كما يلاحظ جيلسون أن الكندي يسمي هذا العقل في موضع آخر بأنه

---

[1]- **المرجع نفسه، ص328.**

[2]- **أ، جيلسون: عن محمد عبد الهادي أبوريدة، رسائل الكندي الفلسفية، (مر. س)، ص330.**

قُنية للنفس، أي ما اكتسبته النفس، فهي اقتنته وصار موجودا فيها مثلما توجد الكتابة التي اقتناها الكاتب وثبتت في نفسه.

أما عن آخر العقول وهو**العقل الرابع** أو العقل الأخير، فهو عند الكندي يمثل فعل الإنسان ذاته أولنقل مثلما **توجد الكتابة على صفحات الكتاب**، بمعنى أن هذا العقل يعكس التجربة الإنسانية في الوجود، وهو ما يسميه الكندي بالعقل الظاهر أوالبياني كما جاء في تحقيق عبد الرحمن بدوي[1]، أو يمكن لنا أن نسميه **بالعقل العملي** على حد تعبير كانط وأرسطو من قبل.

إن صفة العقل الرابع عند الكندي تحيلنا على موضعة أساسية في الفكر المعاصر وهي جديرة بالإهتمام، ونقصد بذلك التجربة الوجودية الإنسانية أو النزعة الإنسانية كما يرها "**مارتن هايدغر**" " Martin Heideger"، على اعتبار أن العقل الظاهر أو البياني (العقل العملي بمفهوم كانط) هو انعكاس للتجربة الوجودية، فمهمة الفكر هي أن ينجز العلاقة التي هي بين الوجود وماهية الإنسان.

إن المثال الذي سغناه عن العقل الرابع أوالعقل الظاهري، **كالكتابة على صفحات الكتاب** هو ما يعقله الإنسان من معقولات عن الوجود أي الذي يكتسب مظهر الحقيقة ويعكسها الفكر عن طريق اللغة، أو لنقل هو الإنجاز التام لتجلي الوجود في العقل المستفاد، وهو عمل إنساني فردي، (ظاهرية العقل البياني).

وبما أن العقل المستفاد كما يراه الكندي، هو ذلك العقل الموجود في النفس بالفعل، فعليه أن يعي وجوده في ممارسة الخطابة، ذلك

---

[1]- **عبد الرحمن بدوي، رسائل فلسفية، للكندي والفارابي وابن باجة وابن عدي، دار الأندلس، بيروت، (د.ط) 1997. ص 5.**

لأن تناهي النص ولا تناهي الحاجات اليومية للإنسان تدفع به دائما إلى الاجتهاد في استنباط الأحكام من عبارات المتناهي.

2)- أسس النزعة الإنسانية

تعتمد النزعة الإنسانية على ثلاثة أسس نذكرها على النحو التالي:

1)- الأساس المعرفي ويتمثل مبدأ بروتاجوراس وهو(الإنسان مقياس الأشياء جميعاً).

2)- الأساس القيمي حيث يقوم الإنسان نفسه بتحديد قيم للأشياء المحيطة به ومعايير للسلوك انطلاقاً من غاياته الخاصة.

3)- الأساس الغائي، حيث " أن النزعة الإنسانية الحديثة ومع ديكارت تحديداً قد ارتبطت بتحقيق التقدم العلمي والتقني الذي يحقق رفاهية البشر ويؤدي إلى أن يصبح البشر سادة الطبيعة وملاكها حسب تعبير ديكارت، أو يؤدي لاستعباد الطبيعة لانتزاع أسرارها حسب تعبير فرنسيس بيكون "[1].

3)- الكندي والعقل الحديث

إذا كانت الفلسفة، تعتبر المجال الذي تتحول فيه النزعة الإنسانية من مجرد شعور عام، إلى نظرة عقلية متماسكة للعالم والإنسان، وهذه النظرة لها بالضرورة آثارها في السلوك وفي الممارسة الاجتماعية والسياسية.

فإن رصد هذه النزعة في فلسفة "مارتن هيدغر" " Martin Heideger " وغيره من الفلاسفة الذين ارتبطت منظوماتهم الفلسفية

---

[1]- رضوان جودت زيادة، النزعة الإنسانية في الفكر العربي.. القراءة محددات (1) الكلمة / العدد 29 السنة السابعة، ربيع 2000.

بالإنسان وغاياته أمر له دلالته في عمق الفلسفة الإسلامية وما عالجته من قضايا فلسفية مهمة.

يقول "مارتن هيدغر" "Martin Heideger " في رسالته في النزعة الإنسانية، والتي بعث بها لـ"جان بوفريه" "Jean Beaufret ": " إن التفكير في حقيقة الوجود هو نفسه التفكير في إنسانية الإنسان. ولكن، إذا كانت إنسانية الإنسان كامنة في الفلسفة، أفلا يكون من الضروري أن نضيف إلى المعرفة بالوجود (الأنطولوجيا) إرشادات عامة للفعل والعمل (الأخلاق)؟"[1] لأن الإنسان، وكما يرى مارتن هيدغر Martin Heideger دائما، فقدْ فقَدَ إنسانيته وشخصيته في عصر التطور التكنولوجي، ولا يمكن له أن يعود إلى حالته السوية إلا بتنظيم أخلاقي لأعماله وأفعاله.

4)- العقل والتعقل (التعقلية)

ما هو العمل لتأسيس معقولية عربية جديدة معاصرة نستطيع من خلالها التعبير عن توجه عملي أخلاقي يهم شؤون الإنسان الحياتية؟

في هذا الإطار جاء كتاب "العقل والحرية" **لفتحي التريكي** Triki Fathi، كإجابة على هذا السؤال من حيث أنه أراد إيجاد صيغة " تفاعلية جديدة بين المفهوم العربي للعقل الذي استقاه التراث الفلسفي والعلمي وبين مكتسبات العلوم والتقنية اعتبارا لمنزلة المجتمعات العربية في شبكة العلاقات العلمية والمطارحات الإيديولوجية المختلفة التي نشدها تارة إلى ماضينا وأخرى إلى مستقبلنا"[2].

---

[1] - مارتن هايدغر، ما الفلسفة؟ ما الميتافيزيقا؟ ، تر: فؤاد كامل ومحمد رجب، مراجعة عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الثانية 1974، ص 43.

[2]- فتحي التريكي، العقل والحرية "دراسة في التعقلية"، تبر الزمان، تونس، (د. ط) سنة 1998، ص 35.

فإذا كانت العقلانية، هي جعل العقل أساسا لكل معرفة ممكنة، باعتباره هو الوحيد الذي يحمل في ذاته إمكانية التعرف على الأشياء بواسطة التجربة، هذه العقلانية التي أسس لها **أفلاطون** من خلال نظريته في التذكر التي تجعل الفهم يتأتى عن عملية ذهنية مجردة كامنة في النفس. وقد امتدت هذه الفكرة إلى **ديكارت** ثم **كانط** (المعرفة القبلية) **فهيجل** من حيث إقراره بتماثل العقل في المعرفة والأخلاق والسياسة.

أما المعقولية فهي جعل الشيء معقولا، من حيث تطبيق جملة المقاييس المنطقية على سيرورة الفكر لتجعل منه أمرا معقولا، والمعقولية تطلق على كل ناتج عن التجربة التي تحدث معرفة عامة، " فكل نشاط علمي سواء كان ذهنيا أو علميا هو معقول من حيث ارتباطه بالمبادئ المنطقية العقلية والتجريبية "[1]، وله تمظهراته داخل مختلف العلوم والممارسات.

إن **فتحي التريكي** يقترح علينا مفهوما جديدا هو" التعقلية " مفاده أن الإنسان "المتعقل هو الذي يعتمد العقل في حياته فتكون أخلاقيته مطابقة لنمط تفكيره العقلي"[2]، وبهذا المعنى تكون التعقلية هي صفة الإنسان في نمط سلوكه وعيشته وتفكيره، لأنها تخضع إلى جملة " من المقاييس النظرية والعملية التي إن تحققت في ممارسات الإنسان جعل من الفرد متعقلا "[3]، أي أنها تفيد قابلية السلوك البشري وممارساته المختلفة، لأنها تتحدد بواسطة التعقل.

---

[1]- **المرجع نفسه، ص 37.**
[2]- **المرجع نفسه، ص 39.**
[3]- **المرجع نفسه، ص 39.**

يظهر مما سبق عند **التريكي** أن اللوغوس هو أصل التفكير، كما جاء في قصيدة **بارمنيدس**، من حيث أنه مرتبط بالاستدلال وبعدم التناقض في الفكر. إنه الخطاب المفتوح الذي يقبل التحاور ليجعل من الحياة الاجتماعية حياة ممكنة.

إن العقل البياني الذي جاء به **الكندي** في تصنيف العقول، يجعلنا نقول أن مفهوم التعقلية عند **التريكي**، التي تمثل ارتباط العقل النظري بالعقل العملي هو أساس " السعادة وتحقيق التوازن بين جميع التعبيرات الإنسانية وبتعبير أخر تربط التعقلية الحقيقية بالنجاعة بحيث لا تكون النجاعة العملية مضادة للحق لأنها بهذا التضاد ستكون حسب **الفارابي** خبثا ودهاء. "[1]

وعليه يمكن القول، أن تطور النزعة الإنسانية في الثقافة العربية الإسلامية، مشروط بتحقق الإنسان في العالم العربي لإنسانيته عن طريق إعادة إنتاج الوحي في التاريخ، بتأويله المتجدد بتجدد شروط الحياة، وذلك في إطار معرفي بعيداً عن المصالح السياسية، وأهم مسألة يتحقق فيها هذا التأويل، هي ما ذكره الكندي في رسالته " في الحيلة لدفع الأحزان " أن الله خلق كل المخلوقات مزودة بما تحتاج إليه، إلا الإنسان فزوده بقوة العقل على اعتبار أن حاجة الإنسان لا تنقضي، مما ينشأ عنه الحزن والهم. ومن هنا ضرورة أن نستعيد عن طريق تأويل الوحي مبدأ باطنياً يحقق ذاتنا ويمنحها طابعاً إنسانيا.

---

[1]- **المرجع نفسه، ص 47.**